



قاعدة: "التفسير الذي فيه تطهير للأنبياء عما لا ينبغي أولى من غيره" عند القرطبي من خلال كتابه الجامع لأحكام القرآن.

The rule of interpretation of the verses of Quran that includes purification of the prophets from what is not appropriate is more important than anything else according to AL-QURTUBI through his book collection of the QURAN rules

عادل شواش *

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية – جامعة وهران 1 (الجزائر)

Chouache19@hotmail.fr

تاريخ النشر: 2024/07/15

تاريخ القبول: 2024/05/25

تاريخ الاستلام: 2022/03/11

ملخص:

الأنبياء صلوات الله عليهم سفراء الله إلى عباده؛ بعثهم مبشرين ومنذرين، فهم متصفون بالأمانة والصدق في تبليغ شريعة الله؛ لذا وجب الإيمان بعصمتهم، ونفي كل ما يطعن في شخصهم وأخلاقهم، من أجل ذلك ردّ المفسّرون كل قول طاعنٍ في ذاتهم؛ لأنّ الطعن فيهم ضربٌ في صدق الرّسالة. والإمام القرطبي رحمه الله تعالى ممّن نذر نفسه للدّفاع عن الأنبياء والرّسل بصفة عامّة، وعن النّبّي صلّى الله عليه وسلّم بصفة خاصّة؛ لكثرة حملات الطّعن والتّشكيك فيه باعتباره خاتم الأنبياء والمرسلين. ومن هنا يمكن طرح التّساؤل التّالي: كيف تعامل الإمام القرطبي رحمه الله تعالى مع القاعدة التّفسيريّة: "التّفسير الذي فيه تطهير للأنبياء عما لا ينبغي أولى من غيره"؟ وما مدى تطبيقه لها في تفسيره؟ وكيف ردّ رحمه الله تعالى الأقوال التي لا تُناسب مناصب الأنبياء صلوات ربّي وسلامه عليهم أجمعين؟ وللإجابة عمّا سبق ذكره انتظم البحث في مقدّمة وعرض وخاتمة.

الكلمات المفتاحية: القرطبي؛ التّرجيح؛ تطهير؛ الأنبياء.

Abstract :

The prophets, may God's blessings be upon them, are God's ambassadors to His servants; God Almighty has sent them as good tidings and warnings to the servants. They are characterized by honesty and truthfulness in conveying God's laws; Therefore, it is necessary to believe in their infallibility, and to deny everything that afflicts their person and morals, for this reason the commentators rejected every self-defaming statement; Because slandering them is a blow to the sincerity of the message.

* المؤلف المراسل

And Imam al-Qurtubi, may God have mercy on him, who dedicated himself to defending the prophets and messengers in general, and the Prophet, may God bless him and grant him peace, in particular; Due to the many campaigns of slander and questioning of him as the seal of the prophets and messengers.

Hence, the following question can be posed: How did Imam al-Qurtubi, may God have mercy on him, deal with the exegetical rule: "The interpretation in which the prophets are purified from what is not appropriate is more important than others"? What is the extent of its application in its interpretation? And how did he, may God Almighty have mercy on him, respond to statements that do not fit the positions of the prophets, may the prayers and peace of my Lord be upon them all?

To answer the foregoing, the research was organized into an introduction, presentation, and conclusion.

Keywords: al-Qurtubi; weighting; disinflection; the prophets.

1. مقدمة.

إنَّ الإيمان بالله أصل الإيمان بالأنبياء والرُّسل جميعاً، فالواجب على المؤمن أن لا يُفرِّق بين أركان الإيمان، وإلاّ فإيمانه ناقص مطعون فيه، وباعتبار أنّ الأنبياء مكلفون بتبليغ شريعة الله للناس وتبيينها لهم، نجد أنّ أعداء الدِّين يدندنون حولهم ويكثرُّون الشُّكوك فيما يتعلّق بعصمتهم؛ لعلمهم أنّ الطّعن فيهم يقتضي ردّ ما جاؤوا به من الوحي، منذ إرسال الله تعالى آدم عليه السّلام إلى غاية مجيء النّبِيِّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

وبما أنّ الإسلام الرِّسالة المهيمنة والخاتمة والمكمّلة لما قبلها من الشرائع التي تطرّق إليها التّبديل والتّحريف، يحاول أعداء الدِّين ضرب أصولها؛ لإبعاد النّاس عنها عن طريق إدخال الشُّكوك حول ما جاءت به من أحكام وشرائع، ولا سبيل إلى هذا الأمر إلاّ عن طريق الطّعن في عصمة النّبِيِّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ووسمه بأوصاف وأخلاق دنيئة لا تصحّ أن تُنسب للمؤمن السّويّ فضلاً على أن تُنسب إليه صلّى الله عليه وسلّم؛ لذلك نلحظ أعداء الإسلام يُفسِّرون الآيات التي تتحدّث عن الأنبياء والرُّسل بما يخدم أهواءهم، عن طريق نقل روايات وقصص تطعن في أخلاقهم وذاتهم.

ولهذا السّبب نجد أنّ العلماء والمفسّرين سخّروا أقلامهم للدِّفاع عن الأنبياء والرُّسل، وردّ كلّ ما لا يليق بشخصهم وبأمانتهم في تبليغ الوحي؛ ومن هؤلاء الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمّنه من السنّة وآي الفرقان"، فقد ذبّ عن الأنبياء- وخاصة النّبِيِّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم- ما يطعن فيهم، وردّ الأقوال الباطلة حولهم الواردة في تفسير الآيات القرآنيّة، ومن هنا جاء مقالي موسوم بـ: قاعدة: "التفسير الذي فيه تطهير للأنبياء عما لا ينبغي أولى من غيره" عند القرطبي من خلال كتابه الجامع لأحكام القرآن.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة هذا البحث حول بيان كَيْفِيَّة تعامل الإمام القرطبي رحمه الله تعالى مع القاعدة التفسيرية "التفسير الذي فيه تطهير للأنبياء عمّا لا ينبغي أولى من غيره"؟، وما مدى تطبيقه لها في تفسيره الجامع لأحكام القرآن؟ وكيف ردّها الأقوال الطّاعنة في عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم؟.

أهمية البحث:

تتجلّى أهمية البحث فيما يلي:

- 1- أنّ الأنبياء سفراء الله إلى عباده، والطّعن فيهم طعنٌ في الرّسالة.
- 2- أنّ النّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبعوثٌ للنّاس أجمعين، ورسالته خاتمة لما قبلها من الشّرائع، ولا سبيل إلى ردّها إلاّ عن طريق تلفيق الأكاذيب والأباطيل حول شخصه وصفاته وأخلاقه.
- 3- أنّ الطّعن في الأنبياء موجود منذ بعثة النّبِيّ آدم عليه السّلام، وهو مستمرٌّ إلى يومنا هذا؛ لوجود أعداء الدّين وترصدهم للإسلام والمسلمين، فالواجب على كلّ غيور على الدّين الدّفاع عن الأنبياء جميعاً.

أهداف البحث:

من بين الأهداف المرجوّ تحقيقها من هذا البحث ما يلي:

- 1- إبراز خطر الطّعن في عصمة الأنبياء والرّسل عليهم السّلام.
- 2- بيان تطبيق الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره لقاعدة "التفسير الذي فيه تطهير للأنبياء عمّا لا ينبغي أولى من غيره".
- 3- فضح أعداء الإسلام ببيان نواياهم الخبيثة، ومكرهم بالشريعة الإسلامية، عن طريق الطّعن في الأنبياء عليهم السّلام وعصمتهم.
- 4- التّعريف بقاعدة: "القول الذي فيه تنزيه الأنبياء عمّا لا يليق بهم أولى من غيره" عند القرطبي رحمه الله تعالى، وإبراز معناها عنده من خلال ذكر العبارات والصّيغ الدّالة عليها.
- 5- إظهار العناية البالغة للقرطبي رحمه الله تعالى في الدّفاع عن عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم.

الدراسات السابقة:

في حدود اطلاعي لم أقف على أيّ دراسة تطرّقت إلى قاعدة "التفسير الذي فيه تطهير للأنبياء عمّا لا ينبغي أولى من غيره" عند الإمام القرطبي رحمه الله تعالى، وإنّما وقفت على هذه القاعدة عند غيره من المفسّرين دون التّفصيل المذكور في هذا البحث.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي التطبيقي، فقد قمت بقراءة الآيات التي تحدّثت عن الأنبياء والرّسل من تفسير الإمام القرطبي رحمه الله تعالى، وبيان طريقة تعامله مع القصص والأخبار الإسرائيلية المكذوبة عنهم، وكيفية نصرته لهم.

2. مفاهيم عامة:

إنّ الوقوف على معاني الكلمات المفتاحية للبحث يجعل الباحث محيطاً بحيثياته، كما يزيل الغموض عن فكره، ويزيد من فهمه.

1.1. التّطهير:

لغة: طَهَّرَ: الطَّهْرُ: نَقِيضُ الْحَيْضِ. يُقَالُ: طَهَّرَتِ الْمَرْأَةُ وَطَهَّرَتْ- لغتان، فهي طاهر. إذا انقطع، وهي ذات طُهرٍ. وَطَهَّرَتْ، أي: اغتسلت... وفلانٌ طاهرٌ الثَّيابِ، أي: ليس بصاحبِ دَنَسٍ في الأَخلاقِ¹.
والطَّهارة: اسمٌ يقوم مقامُ التَّطهيرِ بِالماءِ في الإِسْتِنْجاءِ وَالوُضوءِ.²
قال ابن فارس: والتَّطَهَّرُ: التَّنْزَهُ عن الإِثمِ وكلِّ قَبِيحٍ³.

وبناء على ما تمّ ذكره وما حوته كتب الغريب، نستنتج أنّ التّطهير يُستعمل في التّعبير عن إزالة النّجاسة بالماء، واستُعيّر اللفظ للاستعمال المجازي والذي يُقصد به التّنزّه عن كلّ ما هو قبيحٌ، وهو الذي نعتمده في بيان هذه القاعدة.

- اصطلاحاً: كما أشرتُ سابقاً فإنّ العلماء يستعملون لفظ التّطهير والطّهارة في باب الوضوء وما يتعلّق برفع الحدث وإزالة الخبث، ولكنّي بصدّد الحديث عن تطهير الأنبياء عمّا لا يليق بهم ويطعن في شخصهم، أي: تنزيههم وردّ الأقوال الطّاعنة في نُبوّتهم.
فالطّهارة هنا بمعناها المعنوي وليس الجسدي، ويُقصد بها: طهارة القلب من الشّرك والمعاصي وكل ما ران عليه.

و بناءً عليه فإنّ تطهير الأنبياء معناه: تنزيههم عمّا لا يليق بهم، وردّ طعن الطّاعنين في نُبوّتهم وعصمتهم. قال أبو عبد الله القرطبي: "وَسُمِّيَتِ الْعِصْمَةُ عِصْمَةً؛ لِأَنَّهَا تَمْنَعُ مِنَ ارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ"⁴.
2.2. الأنبياء.

لغة: التّبأ، مهموز: الخَبْرُ، وَإِنَّ لِفُلَانٍ نَبَأً، أي: خَبَرًا.... والتّبأة: صوتُ الكلاب ونحوها⁵
والنّبئ: من النّبوة والتّبأوة، وهي الارتفاع، ويكون من ذلك اشتقاق اسم النّبئِ صلّى الله عليه وسلّم⁶.
وقال ابن منظور: "النّبئ: الطّريقُ الواضح"⁷

1 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج4، ص 18.

2 - محمّد الأزهرى، تهذيب اللّغة، ج 6. ص 101.

3 - أحمد بن فارس، مجمل اللّغة، ص 588.

4 - محمّد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص 338.

5 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج8، ص 382.

6 - أحمد بن فارس، مجمل اللّغة، ص 853.

7 - محمّد ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص 164.

اصطلاحًا: هو مَنْ نَبَّأَهُ اللهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ، إِنْ أَمَرَهُ أَنْ يُبَلِّغَ غَيْرَهُ، فَهُوَ نَبِيٌّ رَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ يَأْمُرْهُ أَنْ يُبَلِّغَ غَيْرَهُ، فَهُوَ نَبِيٌّ وَلَيْسَ بِرَسُولٍ. فَالرَّسُولُ أَحْصُ مِنَ النَّبِيِّ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا، وَلَكِنَّ الرِّسَالَةَ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهَا، فَالنُّبُوَّةُ جُزْءٌ مِنَ الرِّسَالَةِ، إِذِ الرِّسَالَةُ تَتَنَاوَلُ النُّبُوَّةَ وَغَيْرَهَا، بِخِلَافِ الرُّسُلِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَتَنَاوَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَغَيْرَهُمْ، بَلِ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ. فَالرِّسَالَةُ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهَا، وَأَحْصُ مِنْ جِهَةِ أَهْلِهَا¹.

وسُيِّى الرَّسُولُ نَبِيًّا لَاهْتِدَاءِ الْخَلْقِ بِهِ، كَالطَّرِيقِ...فَالْأَنْبِيَاءُ لَنَا كَالسُّبُلِ فِي الْأَرْضِ²

كما تطرّق الإمام القرطبي رحمه الله تعالى إلى مسألة الفرق بين النبي والرّسول في تفسيره، حيث قال: "وَعَلَى هَذَا فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا؛ لِأَنَّ الرُّسُولَ وَالنَّبِيَّ قَدِ اشْتَرَكَا فِي أَمْرِ عَامٍّ وَهُوَ النَّبَأُ، وَافْتَرَقَا فِي أَمْرِ خَاصٍّ وَهِيَ الرِّسَالَةُ"³.

وقد ذكرت لفظ الأنبياء دون الرّسل؛ لأنني كما أشرت سابقًا إلى أنّ النبيّ أعمّ من الرّسول. وقبل الشروع في بيان عمل الإمام القرطبي رحمه الله تعالى بقاعدة: "التفسير الذي فيه تطهير للأنبياء عمّا لا ينبغي أولى من غيره"، تكلمت على معناها وعمل المفسرين بها وهذا على النحو الآتي:

3. صورة القاعدة:

إذا تنازع المفسرون في تفسير آية من الآيات المتعلقة بالأنبياء والمرسلين عليهم السلام- وهذا موجود خاصة في الروايات الإسرائيلية- التي تنقل لنا قصص الأنبياء، فإنّ أولى الأقوال بالصواب ما كان فيه تنزيه لذاتهم، وأمّا ما ورد فيه طعن في عصمتهم، أو تلفيق كلام يقدح في نبوتهم، أو اتهامهم بمخالفة أمر الله تعالى في تبليغ ما أوحى إليهم، فهو باطل مردود على أصحابه، ولا يقبل بوجه من الوجوه. وقد تطرّق الإمام القرطبي رحمه الله تعالى إلى اختلاف العلماء في عصمة الأنبياء من صغائر الذنوب، بعد اتّفاقهم على عصمتهم من الكبائر⁴.

4. عمل المفسرين بها:

إنّ الناظر في كتب المفسرين قديمًا وحديثًا يرى اهتمامًا بالغًا منهم بالآيات التي تتحدث عن عصمة الأنبياء والرّسل عليهم السلام من خلال ترجيح الأقوال المنزهة لشخصهم، وعصمة رسالتهم وردّ ما سواها، ومن هؤلاء :

أولًا: الإمام ابن فرس الغرناطي في تفسيره "أحكام القرآن"، ومثال ذلك عند تفسيره لقوله تعالى:

1 - صدر الدين ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ج1، ص 155.

2 - محمّد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص 156.

3 - المصدر نفسه، ج9، ص 353.

4 - محمّد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص 458 إلى 460.

"رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" [البقرة: 128] حيث قال رحمه الله تعالى: "اختلف في معنى طلب إبراهيم وإسماعيل التوبة وهم معصومون، فقيل: طلب الدوام والتثبيت، وقيل: أرادوا من بعدهما من ذريتهما، وقيل: أرادوا أن يسئنا، ويعلموا أن تلك المواضع مكان التخلي من الذنوب، وطلب التوبة.

وقال الطبري: ليس أحد من خلق الله إلا وبينه وبين الله عصمة الأنبياء في معنى التبليغ، ومن الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة. واختلف في غير ذلك من الصغائر.

والذي أقول به أنهم معصومون من الجميع. وقول النبي ﷺ: (إني أتوب إلى الله تعالى في اليوم وأستغفره سبعين مرة)، إنما هو رجوعه من حالة إلى أرفع منها، لمزيد علمه وإطلاعه على أمر الله، فهو يتوب من المنزلة الأولى إلى الأخرى، والتوبة هنا لغوية شرعية¹

ومما مضى نستنتج أن الإمام ابن فرس رحمه الله تعالى طبق قاعدة "التفسير الذي فيه تطهير للأنبياء عما لا ينبغي أولى من غيره"، ورجح أن طلب إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للتوبة في قوله تعالى: "وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم" إنما كان طلباً للتثبيت والدوام؛ لأنه يرى أن الأنبياء معصومون من الصغائر والكبائر جميعاً.

ثانياً: الإمام الصابوني رحمه الله في تفسيره "صفوة التفاسير"، ومثاله:

قال تعالى: "فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب" [ص: 24]، قال رحمه الله تعالى: "أي: طلب المغفرة من الله وخرّ ساجداً لله تعالى، ورجع إليه بالتوبة والتندم على ما فرط منه، قال أبو حيان: وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء، ضربنا عن ذكرها صفحاً، والذي يدل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظناً منه أنهم يغتالونه إذا كان منفرداً في محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومة، وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قص الله تعالى، فاستغفر من ذلك الظن، وخرّ ساجداً لله عز وجل، ونحن نعلم قطعاً أن الأنبياء معصومون من الخطايا، إذ لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك لبطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون، فما حكى الله في كتابه يُمرُّ على ما أَرَادَهُ اللهُ، وما حكى القصاص مما فيه غض من منصب النبوة طرحناه"².

وبناءً على ما سبق نلاحظ أن الإمام الصابوني رحمه الله تعالى ذكر ورود روايات لا تصح في الآية المذكورة آنفاً، وقد أعرض عن ذكرها لذات السبب، وبعدها تطرق إلى المعنى الصحيح للآية، وهو أن استغفار داود عليه السلام إنما كان لظنه بأن الرجلين أتيا لقتله، كما ذكر أيضاً رحمه الله تعالى أن الأنبياء

1 - عبد المنعم ابن الفرسي، أحكام القرآن، ج1، ص 113.

2 - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج3، ص 55.

معصومون؛ لأنهم مكلّفون بتبليغ الوحي تطبيقًا لقاعدة "التفسير الذي فيه تطهير للأنبياء عمّا لا ينبغي أولى من غيره".

5. تطبيقات القرطبي رحمه الله تعالى لهذه القاعدة.

إنّ الإمام القرطبي رحمه الله تعالى ممّن نذر نفسه للدفاع عن الأنبياء صلوات ربّي وسلامه عليهم أجمعين، وتلمس ذلك في ثنايا تفسيره، ففي كلّ آية تتحدّث عنهم نجده رحمه الله تعالى يدبّ عنهم طعن الطاعنين في عصمتهم، ويُنزّههم عمّا لا يليق بهم، وقد خصّصت عملي في هذا البحث للحديث عن عصمة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والأنبياء الآخرين، وقد كان عملي ذا شقين، حيث تحدّثت في الشقّ الأوّل منه عن عصمة الأنبياء فيما يتعلّق بذاتهم وشخصهم، والثاني ما يتعلّق بدعوتهم ورسالتهم.

1.5 تضعيف الأقوال التفسيرية التي تتنافى مع أخلاق الأنبياء عليهم السّلام وشخصهم:

تطرقت في هذه النقطة إلى بيان دفاع الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن الأنبياء عليهم السّلام، وترجيحه التفسير الذي يُنزههم، ويدفع عنهم ما يطعن في شخصهم وأخلاقهم ممّا يؤدي الطعن في نبوتهم ورسالتهم، كما تجدر الإشارة إلى أنّي سأركّز الحديث عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، باعتباره خاتم الأنبياء والمرسلين هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أنّ المُستشرقين وأعداء الدّين يستغلّون هذه الثغرات للطعن في الإسلام والمسلمين، وقد تحدّث الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن عصمة الأنبياء عليهم السّلام، وخطر الطعن في شخصهم، في معرض تفسيره لسورة يوسف فقال: "وهذه الآية فيما تنزيه الأنبياء وعصمتهم عمّا لا يليق بهم. وهذا الباب عظيم، وخطره جسيم، ينبغي الوقوف عليه؛ لئلا يزّل الإنسان فيكون في سوائ الجحيم"¹. وتفصيل ذلك كما يلي:

1.1.5. النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

عمد الإمام القرطبي رحمه الله تعالى إلى ترجيح كلّ الأقوال المنزهة للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم التي تتعلّق بأخلاقه وشخصه وردّ ما سواها، ومن الصّبيغ التي اعتمدها قوله: "فأمّا ما روي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم هوي زينب امرأة زيد وربّما أطلق بعض المجان لفظ عشق، فهذا إنّما يصدر عن جاهل بعصمة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن مثل هذا، أو مُستخفّ بحُرْمته"، وقوله: "وليس يجوز أن يفعل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما يكون به ظالمًا، فهو محمولٌ على إرادة أمّته؛ لعصمة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقطعنا أنّ ذلك لا يكون منه"، وقوله: "قال علماؤنا: هذا يقتل ولا يُستتاب إن نَسب الغدر للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم"، وقوله: "وكما لا يجوز أن يُخان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا يجوز أن يُخان غيره، ولكن خصّه بالذكر لأنّ الخيانة معه أشدّ وقعاً وأعظم وزراً، لأنّ المعاصي تعظم بحضرته لتعني توقيره" وغير ذلك من العبارات.

1 - محمّد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص 471.

ومن أمثلة ذلك:

قال تعالى: "وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ" [الأحزاب: 37]، بعد أن ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى اختلاف العلماء في تأويل هذه الآية، قال: "قوله تعالى: 'وَتَخْشَى النَّاسَ' أي: تَسْتَحْيِيهِمْ. وَقِيلَ: تَخَافُ وَتَكْرَهُ لِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ لَوْ قُلْتَ: طَلَّقَهَا، وَيَقُولُونَ أَمَرَ رَجُلًا بِطَلْقِ امْرَأَتِهِ ثُمَّ نَكَحَهَا حِينَ طَلَّقَهَا. وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ" فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ.

وَقِيلَ: وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَسْتَحْيِيَ مِنْهُ، وَلَا تَأْمُرُ زَيْدًا بِإِمْسَاكِ زَوْجَتِهِ بَعْدَ أَنْ أَعْلَمَكَ اللَّهُ أَنَّهَا سَتَكُونُ زَوْجَتَكَ، فَعَاتَبَهُ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ هَذَا.

وروي عن علي بن الحسين: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ قَدْ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنْ زَيْدًا يُطَلَّقُ زَيْنَبَ، وَأَنَّهُ يَتَزَوَّجُهَا بِتَزْوِجِ اللَّهِ إِيَّاهَا [له]، فَلَمَّا تَشَكَّى زَيْدٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُلِقَ زَيْنَبَ، وَأَنَّهَا لَا تُطِيعُهُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ يُرِيدُ طَلَّاقَهَا، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جِهَةِ الْأَدَبِ وَالْوَصِيَّةِ: "وَإِذَا تَقَى اللَّهَ" [أي: في قولك: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ" وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَفَارِقُهَا وَيَتَزَوَّجُهَا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَخْفَى فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يَرِدْ أَنْ يَأْمُرَهُ بِالطَّلَاقِ لِمَا عَلِمَ أَنَّهُ سَيَتَزَوَّجُهَا، وَخَشِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَلْحَقَهُ قَوْلٌ مِنَ النَّاسِ فِي أَنْ يَتَزَوَّجَ زَيْنَبَ بَعْدَ زَيْدٍ، وَهُوَ مَوْلَاهُ، وَقَدْ أَمَرَهُ بِطَلَّاقِهَا، فَعَاتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنْ أَنْ خَشِيَ النَّاسَ فِي شَيْءٍ قَدْ أَبَاحَهُ اللَّهُ لَهُ، بِأَنْ قَالَ: "أَمْسِكْ" مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ يُطَلِّقُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ اللَّهَ أَحَقُّ بِالْخَشْيَةِ، أَي: فِي كُلِّ حَالٍ.

قَالَ عَلَمًاؤُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ: وَهَذَا الْقَوْلُ أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ التَّحْقِيقِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَالْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، كَالرُّهْرِيِّ وَالْقَاضِي بَكْرِ بْنِ الْعَلَاءِ الْقُشَيْرِيِّ، وَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ بْنِ الْعَرَبِيِّ وَغَيْرِهِمْ. وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: "وَتَخْشَى النَّاسَ" إِنَّمَا هُوَ إِرْجَافُ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُ نَهَى عَنْ تَزْوِجِ نِسَاءِ الْأَبْنَاءِ وَتَزْوِجِ بَرَوَجَةِ ابْنِهِ. فَأَمَّا مَا رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَوِيَ زَيْنَبَ امْرَأَةَ زَيْدٍ وَرَبَّمَا أَطْلَقَ بَعْضَ الْمُجَانِّ لَفْظَ عَشْقٍ، فَهَذَا إِنَّمَا يَصْدُرُ عَنْ جَاهِلٍ بِعِصْمَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ مِثْلِ هَذَا، أَوْ مُسْتَخْفٍ بِحُرْمَتِهِ"¹.

مِمَّا مَضَى نَسْتَنْتِجُ أَنَّ الْإِمَامَ الْقُرْطُبِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَجَّحَ الْقَوْلَ الَّذِي فِيهِ تَطْهِيرٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَزْوِجَهُ عَمَّا لَا يَلِيْقُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ الَّذِي لَا يَلِيْقُ أَنْ يُنْسَبَ لِسُوِيِّ الطَّبَعِ، فَهُوَ مِنْ بَابِ أَوْلَى بَعِيدٍ عَنْ أَخْلَاقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُطَبِّقًا لِقَاعِدَةِ "التفسير الذي فيه تطهير للأنبياء عما لا ينبغي أولى من غيره"².

1 - محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 17، ص 155 إلى 158.

2 - ينظر أيضًا تطبيقات القرطبي لهذا النوع من القاعدة: ج 3، ص 387، ج 21، 367.

2.1.5 بقية الأنبياء عليهم السلام:

كان للإمام القرطبي رحمه الله تعالى حديث مائع عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والدفاع المستميت عن شخصهم وأخلاقهم، والندارس لتفسيره يرى ذلك جلياً، فقد كان عملي في هذه الجزئية هو بيان ترجيحه رحمه الله تعالى للتفسير الذي فيه تنزيه لهم عن رذائل الأخلاق، وبيان عصمتهم منها، ونستشف ذلك من خلال عباراته في ثنايا كتابه الجامع، ومنهجه في عرضها على النحو الآتي:

1- أن يعبر صراحةً بأن هذا القول يتنافى مع عصمة الأنبياء عليه السلام؛ منها قوله: "وهذا القول هو الصحيح، وهو الأشبه بأفعال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام"، وقوله: "والأول أصح، وأشبه بحال الأنبياء"، وقوله: "وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به امتحنوا وقتلوا".

2- أو بعد ذكره للأقوال الواردة في الآية عن الأنبياء عليهم السلام، يذكر القول القائل بعصمتهم من أمور لا تليق بمقامهم، ثم يعقبها بقوله: "وهو الصحيح من هذه الأقوال... هذا أصح ما قيل في وفاة موسى عليه السلام"، "وهم أنبياء معصومون"، "ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يقتلون به... ومعلوم أنه لا يقتل نبي بحق، ولكن يقتل على الحق"، "وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية؛ فإن الأنبياء معصومون"، "أنبياء الله لا يظلمون؛ لأنهم معصومون"، "تبرئة من الله تعالى لسليمان"، "وهذا لوجوب العصمة للأنبياء"، "قلت: وهو الصحيح... ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ - لكثرة معارفهم وعلو منازلهم - ما لا يلزم غيرهم؛ كان تشاغله عن تذكر النبي تضييعاً صار به عاصياً، أي مخالفاً"، "وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر"، "فإبراهيم عليه السلام أخرى ألا يشك، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم"، "وقد ضعف هذا القول من حيث إن الشيطان لا يتصور بصورة الأنبياء"، "وحوشي سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلباً لنفس الدنيا؛ لأنه هو والأنبياء أزهى خلق الله فيها، وإنما سأل مملكتها لله"، "وقد ذكر المفسرون في ذلك قصصاً وأخباراً الله أعلم بصحتها، وفي الصحيح غنية عنها"، "وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات...، فإن آدم وحواء عليهما السلام وإن غرهما بالله الغرور؛ فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين..."، "إن آخر الأنبياء دخول الجنة سليمان بن داود عليه السلام لمكان ملكه في الدنيا... وهو حديث لا أصل له..."، "... قيل: معناه استزله إبليس ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته. وهذا قول مزود مرغوب عنه؛ لأنه كفر"، "وأما قولهم: إنه استعان به مظلوم فلم ينصره، فمن لنا بصحة هذا القول... وهو متره عن ذلك... وكذلك قولهم: إنه منع فقيراً من الدخول، إن كان علم به فهو باطل عليه وإن لم يعلم به فلا شيء عليه فيه"، "وهذا لعب بالدین، وانسلاط عن احترام النبيين"، "وهو استدلال فاسد؛ لأنه لا يجوز أن ينسب إلى نبي معصوم أنه فعل الفساد"، "ولا التفات لما روي عن قتادة... وهذا قول رديء لا ينبغي أن يضاف إلى موسى عليه السلام"، "ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء"، "وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي، وعن عقوق الآباء..."

3- أو يذكر رحمه الله تعالى تفسيراً لأحدهم وارد في معنى الآية، طاعنٌ في شخص نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام، ثم يردُّ رحمه الله تعالى بقوله: "تفسيرٌ خبيثٌ"، وغيرها من العبارات.

ومن أمثلة ذلك ما يلي:

أ- قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ..." [المائدة: 20-36]، تطرق الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عقب تفسيره لهذه الآيات إلى مسألة لطم موسى عين ملك الموت، حيث قال: "واختلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِ لَطْمِ مُوسَى عَيْنَ مَلِكِ الْمَوْتِ وَفَقَّهًا عَلَى أَقْوَالٍ، مِنْهَا: أَنَّهَا كَانَتْ عَيْنًا مُتَخَيَّلَةً لَا حَقِيقَةً، وَهَذَا بَاطِلٌ؛ لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى أَنْ مَا يَرَاهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ صُورِ الْمَلَائِكَةِ لَا حَقِيقَةَ لَهُ. وَمِنْهَا: أَنَّهَا كَانَتْ عَيْنًا مَعْنَوِيَّةً وَإِنَّمَا فَفَقَّاهَا بِالْحُجَّةِ، وَهَذَا مَجَازٌ لَا حَقِيقَةً. وَمِنْهَا: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَعْرِفْ مَلَكَ الْمَوْتِ، وَأَنَّهُ رَأَى رَجُلًا دَخَلَ مَنْزِلَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ يُرِيدُ نَفْسَهُ فِدَافِعَ عَنِ نَفْسِهِ فَلَطَمَ عَيْنَهُ فَفَقَّاهَا، وَتَجِبُ الْمُدَافَعَةُ فِي هَذَا بِكُلِّ مُمَكِّنٍ. وَهَذَا وَجْهٌ حَسَنٌ؛ لِأَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِي الْعَيْنِ وَالصَّكِّ، قَالَهُ الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ خَزِيمَةَ، غَيْرَ أَنَّهُ اعْتَرَضَ عَلَيْهِ بِمَا فِي الْحَدِيثِ؛ وَهُوَ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ لَمَّا رَجَعَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ: يَا رَبِّ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ، فَلَوْ لَمْ يَعْرِفْهُ مُوسَى لَمَّا صَدَقَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ مَلَكِ الْمَوْتِ؛ وَأَيْضًا قَوْلُهُ فِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى: أَجِبَ رَبِّكَ يَدُلُّ عَلَى تَعْرِيفِهِ بِنَفْسِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ... قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَهَذَا كَمَا تَرَى، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ أَنْ يَقَعَ مِنْهُمْ ابْتِدَاءٌ مِثْلُ هَذَا فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ.

ومِنْهَا: وَهُوَ الصَّحِيحُ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ السَّلَامُ عَرَفَ مَلَكَ الْمَوْتِ، وَأَنَّهُ جَاءَ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، لَكِنَّهُ جَاءَ مَعِيءَ الْجَازِمِ بِأَنَّهُ قَدْ أَمَرَ بِقَبْضِ رُوحِهِ مِنْ غَيْرِ تَخْيِيرٍ، وَعِنْدَ مُوسَى مَا قَدْ نَصَّ عَلَيْهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ رُوحَ نَبِيٍّ حَتَّى يُخَيَّرَهُ (البخاري، محمد، 2002م)، الجامع الصحيح، بيروت، دار ابن كثير، كتاب الصلاة، باب الخَوْخَةَ والممر في المسجد، ص 124، 125) فَلَمَّا جَاءَهُ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي أُعْلِمَ؛ بَادَرَ بِشَهَامَتِهِ وَقُوَّةِ نَفْسِهِ إِلَى أَدْبِهِ، فَلَطَمَهُ، فَفَقَّاهُ عَيْنَهُ امْتِحَانًا لِمَلَكِ الْمَوْتِ، إِذْ لَمْ يُصَرِّحْ لَهُ بِالتَّخْيِيرِ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا، أَنَّهُ لَمَّا رَجَعَ إِلَيْهِ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَخَيَّرَهُ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، اخْتَارَ الْمَوْتَ وَاسْتَسَلَّمَ. وَاللَّهُ بِغَيْبِهِ أَحْكَمُ وَأَعْلَمُ. هَذَا أَصَحُّ مَا قِيلَ فِي وَفَاةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ¹.

نستنتج أن الإمام القرطبي رحمه الله تعالى رجح القول الذي فيه تطهير للنبي موسى عليه السلام، وردَّ كلَّ الأقوال التي تطعن في شخصه وأخلاقه، تطبيقاً لقاعدة "التفسير الذي فيه تطهير للأنبياء عما لا ينبغي أولى من غيره".

ب- قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي" [البقرة: 260]، بعد أن تطرق الإمام القرطبي رحمه الله تعالى إلى اختلاف النَّاسِ في سؤال إبراهيم عليه

1 - محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 06، ص 406، 407.

السَّلام، هل صدر عن شكِّ أم لا؟، ذكر قول الجمهور في أنّ إبراهيم عليه السَّلام لم يكن شاكًّا قطُّ في إحياء الموتى وإنَّما طلبَ المُعَايَنَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ النُّفُوسَ مُسْتَشْرِقَةً إِلَى رُؤْيَةِ مَا أُخْبِرَتْ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: "لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايَنَةِ" رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَلَمْ يَرَوْهُ غَيْرُهُ، قَالَهُ أَبُو عُمَرَ. قَالَ الْأَخْفَشُ: لَمْ يَرِدْ رُؤْيَةُ الْقَلْبِ وَإِنَّمَا أَرَادَ رُؤْيَةَ الْعَيْنِ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالرَّبِيعُ: سَأَلَ لِيَزْدَادَ يَقِينًا إِلَى يَقِينِهِ...¹ وبعدها ردَّ على الإمام القرطبي رحمه الله تعالى أنّ هناك من قال بأنَّ إبراهيم عليه السَّلام سأل ذلك ربَّه؛ لأنَّه شكَّ في قدرة الله تعالى، وَوَجَّهَ رحمه الله تعالى حديث أبي هريرة أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم)².

حيث قال: "فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ: لَوْ كَانَ شَاكًّا لَكُنَّا نَحْنُ أَحَقُّ بِهِ وَنَحْنُ لَا نَشْكُ فَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ أُخْرَى أَلَّا يَشْكُ، فَالْحَدِيثُ مَبْنِيٌّ عَلَى نَفْيِ الشَّكِّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، وَالَّذِي رُوِيَ فِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "ذَلِكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ"³ إِنَّمَا هُوَ فِي الْخَوَاطِرِ الَّتِي لَا تَتَبُّتُ؛ وَأَمَّا الشَّكُّ فَهُوَ تَوَقُّفٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ لَا مَرِيَّةَ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ، وَذَلِكَ هُوَ الْمَنْفِيُّ عَنِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلامُ.

وَإِحْيَاءُ الْمَوْتَى إِنَّمَا يَثْبُتُ بِالسَّمْعِ، وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ أَعْلَمَ بِهِ، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: "رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ" [البقرة: 258] فَالشَّكُّ يَبْعُدُ عَلَى مَنْ تَثْبُتَ قَدَمُهُ فِي الْإِيمَانِ فَقَطُّ، فَكَيْفَ بِمَرْتَبَةِ النُّبُوَّةِ وَالْخَلَّةِ؟، وَالْأَنْبِيَاءُ مَعْصُومُونَ مِنَ الْكِبَائِرِ وَمِنَ الصَّغَائِرِ الَّتِي فِيهَا رَذِيلَةٌ إِجْمَاعًا"⁴.

وفي الأخير تطرَّق رحمه الله تعالى إلى عصمة الأنبياء، وأنَّ مثل هذا الشكِّ لا يجوز عليهم، حيث قال: "وَلَا يَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ مِثْلُ هَذَا الشَّكِّ فَإِنَّهُ كُفْرٌ، وَالْأَنْبِيَاءُ مُتَّفِقُونَ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ. وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ أَنْبِيَاءَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ سَبِيلٌ فَقَالَ: "إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ" [الحجر: 42]، وَقَالَ اللَّعِينُ: "إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ" [الحجر: 40]، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانَةٌ فَكَيْفَ يُشَكِّكُهُمْ؟ وَإِنَّمَا سَأَلَ أَنْ يُشَاهِدَ كَيْفِيَّةَ جَمْعِ أَجْزَاءِ الْمَوْتَى بَعْدَ تَفْرِيقِهَا، وَاتِّصَالِ الْأَعْصَابِ وَالْجُلُودِ بَعْدَ تَمْزِيقِهَا، فَأَرَادَ أَنْ يَتَرَقَّى مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ؛ فَقَوْلُهُ: "أَرِنِي كَيْفَ" طَلَبُ مُشَاهَدَةِ الْكَيْفِيَّةِ..."⁵.

نستشف من المثال أنّ نلحظ الإمام القرطبي رحمه الله تعالى رجَّح القول بأنَّ سؤال إبراهيم عليه السَّلام في كَيْفِيَّةِ إحياء الموتى لم يكن عن شكِّ في قدرة الله تعالى؛ لأنَّ الأنبياء صلوات الله عليهم مُتَّفِقُونَ

1 - المصدر نفسه، ج4، ص 409.

2 - محمَّد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصَّحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: "ونبيهم عن ضيف إبراهيم"، ص 832.

3 - مسلم بن الحجاج، المسند الصَّحيح. كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، ج1، ص 119.

4 - محمَّد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج04، ص 310، 311.

5 - المصدر نفسه، ج04، ص 312.

على الإيمان بالبعث، ولا يجوز أن يُقال فيهم مثل هذا؛ لأنه يطعن في عصمتهم، تطبيقاً لقاعدة: "التفسير الذي فيه تطهير للأنبياء عما لا ينبغي أولى من غيره".¹

2.5. تضعيف الأقوال التفسيرية التي تتنافى مع عصمة الأنبياء عليهم السلام في تبليغ رسالتهم:

لم يقتصر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى على ترجيح التفسير الذي فيه تطهير الأنبياء وبيان عصمتهم في شخصهم فقط، وإنما سعى لردّ الأقوال الطاعنة فيهم، والتي تنسب لهم ما لا يليق بنبوتهم، وتطعن في دعوتهم، وقد ذكرت أمثلة تتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأخرى متعلّقة بغيره من الأنبياء عليهم السلام، وتفصيل ذلك ما يلي:

1.2.5 النبي صلى الله عليه وسلم:

إنّ المتبحر في تفسير الإمام القرطبي رحمه الله تعالى يجده كثير الحديث عن عصمة النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته؛ باعتباره خاتم الأنبياء والمرسلين، والظن فيه طعن في الإسلام؛ لذلك نجده يركّز كثيراً على التنبيه إلى أمانة النبي صلى الله عليه وسلم في التبليغ عن ربه، وتكذيب الأقوال التي تنسب له ما لا يليق برسالته صلى الله عليه وسلم، وقد تحدّث عن هذا الأمر فقال: "...دليل على نبوته، لأن الله عزّ وجلّ أخبر أنّه معصوم، ومن ضمن سبحانه له العصمة فلا يجوز أن يكون قد ترك شيئاً مما أمره الله به".²

ومن العبارات التي اعتمدها في هذا الصدد قوله: "و هذا لا يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم في التبليغ"، "ومن ضمن سبحانه له العصمة فلا يجوز أن يكون قد ترك شيئاً مما أمره الله به"، "لأنه معصوم من الخطأ في التبليغ والأحكام"، "وكذلك المعروف من سيرته عليه السلام وتوفيق الله إياه له أنه كان قبل نبوته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلفة في الحج، وكان يقف هو بعرفة؛ لأنه كان موقف إبراهيم عليه السلام"، "وأنه صلى الله عليه وسلم كان مؤمناً بالله عزّ وجلّ، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله... بل نزهة الله وصانه عن ذلك"، "وحرّم الله عليه أشياء لم يحرمها على غيره تزيهاً له وتطهيراً. فحرّم الله عليه الكتابة وقول الشعر وتعليمه، تأكيداً لحجته وبيّاناً لمعجزته". وغير ذلك من الصيغ.

ومثال ذلك:

قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" [الحج: 52]، بعد أن ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى بعض الأحاديث المروية في سبب نزول الآية نقل كلام العلماء في الردّ عليها؛ لأنّها تطعن في عصمة

1 - ينظر أيضاً تطبيقات الإمام القرطبي لهذا النوع من القاعدة: ج1، ص 456. ج2، ص 271. ج2، ص 402. ج4، ص 155. ج4، ص 270. ج8، ص 440. ج9، ص 326. ج9، ص 339. ج9، ص 410. ج11، ص 265. ج11، ص 311. ج13، ص 336. ج14، ص 154. ج18، ص 167. ج18، ص 196.

2 - محمّد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص 90.

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يصحَّ شيءٌ منها، وبعد كلامٍ طويلٍ قال: "ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي صُورَةِ هَذَا الْإِلْقَاءِ، فَالَّذِي فِي التَّفَاسِيرِ- وَهُوَ مَشْهُورُ الْقَوْلِ- أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكَلَّمَ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ عَلَى لِسَانِهِ. وَحَدَّثَنِي أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَقِيَ بِالشَّرْقِ مِنْ شُيُوخِ الْعُلَمَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ مَنْ قَالَ: هَذَا لَا يَجُوزُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الْمَعْصُومُ فِي التَّبْلِيغِ..."

وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ فِي كِتَابِ "الشِّفَا" بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ الْأُمَّةَ أَجْمَعَتْ فِيمَا طَرِيقُهُ الْبَلَاغُ أَنَّهُ مَعْصُومٌ فِيهِ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنْ شَيْءٍ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، لَا قَصْدًا وَلَا عَمْدًا وَلَا سَهْوًا أَوْ غَلْطًا..."¹.

ثمَّ عَضَّدَ كَلَامَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَلَامِ الْعُلَمَاءِ لِلرَّدِّ عَلَى الزَّوَايَاتِ الْبَاطِلَةِ وَالْمَكْذُوبَةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ بَرِيءٌ مِمَّا يُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

ثُمَّ تَطَرَّقَ إِلَى بَيَانِ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ"، حَيْثُ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: "أَيُّ: فِي تِلَاوَتِهِ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ مِنْ سُنَّتِهِ فِي رُسُلِهِ وَسِيرَتِهِ فِي أَنْبِيَائِهِ إِذَا قَالُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى قَوْلًا زَادَ الشَّيْطَانُ فِيهِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ كَمَا يَفْعَلُ سَائِرُ الْمَعَاصِي... فَهَذَا نَصٌّ فِي الشَّيْطَانِ أَنَّهُ زَادَ فِي الَّذِي قَالَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكَلَّمَ بِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ مَعْنَى كَلَامِ عِيَاضٍ إِلَى أَنْ قَالَ: "وَمَا هُدِيَ لِهَذَا إِلَّا الطَّبْرِيُّ لِجَلَالَةِ قَدْرِهِ وَصَفَاءِ فِكْرِهِ وَسَعَةِ بَاعِهِ فِي الْعِلْمِ، وَشِدَّةِ سَاعِدِهِ فِي النَّظَرِ، وَكَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَى هَذَا الْغَرَضِ، وَصَوَّبَ عَلَى هَذَا الْمَرْمَى، وَقَرَّطَسَ بَعْدَ مَا ذَكَرَ فِي ذَلِكَ رَوَايَاتٍ كَثِيرَةً كُلُّهَا بَاطِلٌ لَا أَصْلَ لَهَا، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَمَا رَوَاهَا أَحَدٌ وَلَا سَطَّرَهَا، وَلَكِنَّهُ فَعَالَ لِمَا يَرِيدُ"².

وَمِمَّا سَبَقَ نَسْتَنْتِجُ أَنَّ الْإِمَامَ الْقُرْطُبِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَدَّ كُلَّ الْأَقْوَالِ الطَّاعِنَةِ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي كَوْنِهِ خَالَفَ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ، وَنَقَلَ أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ فِي تَنْزِيهِهِ وَرَدِّ الشُّبُهَةِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ ذَلِكَ جَلِيًّا فِي طَرِيقَةِ عَرْضِهِ لِلْأَقْوَالِ، وَبَيَانِ بَطْلَانِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ، كَمَا رَجَّحَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعْصُومٌ مِنَ الْإِفْتِرَاءِ، وَقَوْلٍ مَا لَمْ يُوْحَى إِلَيْهِ، وَهَذَا عَمَلًا بِقَاعِدَةِ "التَّفْسِيرِ الَّذِي فِيهِ تَطْهِيرٌ لِلْأَنْبِيَاءِ عَمَّا لَا يَنْبَغِي أَوَّلَى مِنْ غَيْرِهِ"³.

2.2.5 بقية الأنبياء عليهم السلام.

عَمَدَ الْإِمَامِ الْقُرْطُبِيَّ إِلَى اخْتِيَارِ التَّفْسِيرِ الَّذِي يَتَنَاسَبُ مَعَ مَقَامِ النَّبُوَّةِ، وَلَا يَنْسَبُ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَا يَلِيقُ بِهِمْ، وَإِلَّا وَجِبَ رَدُّهَا كُلِّهَا، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ هُمْ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ جَعَلَهُمْ لِيَكُونُوا سَفَرَاءَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، أَمْنَاءَ عَلَى وَحْيِهِ، مَبْلَغِينَ عَنْهُ رِسَالَتَهُ، مَبْيِّنِينَ شَرَائِعَهُ وَأَحْكَامَهُ.

1 - المصدر نفسه، ج14، ص 426.

2 - محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص 428، 430.

3 - ينظر أيضا تطبيقات الإمام القرطبي لهذا النوع من القاعدة: ج2، ص 446، ج6، ص 442، ج18، ص 510.

ومن العبارات التي اعتمدها رحمه الله تعالى قوله: "... وما أضيف من هذا إلى الأنبياء؛ فإما أن تكون صفات، أو ترك الأولى، أو قبل النبوة"، "والفرق بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنهم معصومون عن الخطأ، وعن الغلط، وعن التقصير في اجتهدهم [يقصد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام]"، "ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا بمعرفة الله تعالى وما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه وأن يبلغوا ذلك أممهم"، "فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلغونه، فإمهم معصومون فيه، وإذا وقع منهم التسيان حيث يجوز وقوعه فإنه يُنسب إلى الشيطان إطلاقاً، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم".

ومثال ذلك:

قال تعالى: "وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين" [يوسف: 42]، قال الإمام القرطبي: "قوله تعالى: 'وقال للذي ظن'، ظن: هنا بمعنى أيقن، في قول أكثر المفسرين. وفسره قتادة على الظن الذي هو خلاف اليقين؛ قال: إنما ظن يوسف نجاة؛ لأن العابر يظن ظناً، وربك يخلق ما يشاء. والأول أصح، وأشبه بحال الأنبياء، وأن ما قاله للفتيان في تعبير الرؤيا كان عن وحي، وإنما يكون ظناً في حكم الناس، وأما في حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيهمًا وقع"¹.

ومما مضى بلحظ أن الإمام القرطبي رحمه الله تعالى رجح القول بأن تعبير يوسف عليه السلام لرؤيا الفتيان كان عن وحي، كما رد قول من قال بأنه فسّر رؤيا الرجلين بالظن الذي هو في مقابل اليقين؛ لأنه نبي ولا يجوز أن يقال في حقه هذا الأمر؛ عملاً بقاعدة: "التفسير الذي فيه تطهير للأنبياء والصالحين عما لا ينبغي أولى من غيره"².

تنبيه: رد الأقوال التي تطعن في الملائكة:

يجدر التنبيه أن الإمام القرطبي يرد الأقوال التي تطعن في الملائكة أيضاً، ومن الصيغ التي اعتمدها في هذا الشأن قوله: "وإنما أفردهم بالذكر؛ لاختصاصهم بشرف المنزلة..."، "وهذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله"، وغيرها من الصيغ.

ومثال ذلك عند تفسيره: لقوله تعالى: "وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت" [البقرة: 102]، بعد أن ذكر الروايات الإسرائيلية الواردة في هاروت وماروت، حيث قال: "وكان ابن عمر فيما يروى عن عطاء أنه كان إذا رأى الزهرة سهيلاً سهيلاً وشمهما وشمهما، ويقول: إن سهيلاً كان عشاراً باليمن يظلم الناس، وإن الزهرة كانت صاحبة هاروت وماروت".

قلنا: هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره، لا يصح منه شيء، فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه، وسقراؤه إلى رسوله "لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون"

1 - محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص 352، 353.

2 - ينظر أيضاً تطبيقات الإمام القرطبي لهذا النوع من القاعدة: ج2، ص 157، ج8، ص 439، ج14، ص 235، ج14، ص 270.

[التحریم: 06]، "بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ" [الأنبياء: 26 – 27]، "يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ" [الأنبياء: 20]...¹.

ثمّ ذكر رحمه الله تعالى: "أَنَّ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ: (ما كان ينبغي لنا) عورة، معناه: لا تقدر على فتنتنا، قال: وَهَذَا كُفْرٌ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ وَمِنْ نِسْبَتِهِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَقَدْ نَزَّهْنَاهُمْ وَهُمْ الْمُتَزَهُّونَ عَنْ كُلِّ مَا ذَكَرَهُ وَنَقَلَهُ الْمُفَسِّرُونَ، سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ"².

وبناءً على ما مضى نلاحظ أنّ الإمام القرطبي رحمه الله تعالى ردّ الروايات الإسرائيلية الباطلة الواردة في حقّ الملائكة الكرام، ونزههم أن يُنسب إليهم ما لا يليق بهم؛ لأنّ الله ذكرهم في القرآن الكريم بأحسن الخصال وأفضلها، كيف لا وهم الذين يعبدون الله ولا يسأمون، ولا يعصونه في ما أمرهم.

6. خاتمة.

وفي ختام هذا البحث أسجّل ما توصلت إليه من نتائج:

- الطعن في الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ديدن أعداء الإسلام والمسلمين.
- الإمام القرطبي رحمه الله تعالى ممّن سخّر قلمه في الدّفاع عن الأنبياء عليهم السلام، وردّ الأقوال الطّاعنة في ذاتهم وشخصهم.
- الطعن في عصمة الأنبياء عليهم السلام من أكثر الأمور الحسّاسة؛ لأنّهم حملة الشّرّائع وهم المكلفون بالتبليغ، والتشكيك فيهم تشكيك في الرّسالة.
- تنبيه الإمام القرطبي رحمه الله تعالى إلى خطر الكذب على الأنبياء صلوات الله عليهم.
- دفاع الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن الملائكة، وإبطال الروايات المكذوبة عنهم.
- الإمام القرطبي رحمه الله تعالى لا يكاد يمرُّ بأيةٍ فيها ذكرٌ للأنبياء إلّا وتحدّث عن عصمتهم وعلوّ شأنهم، والتنبيه على منزلتهم العظيمة، وكذلك معرفتهم بالله تعالى وأمانتهم في التبليغ عنه، والدارس لتفسيره يجد هذا جلياً.
- تباين الصّيغ والعبارات وكثرتها التي اعتمدها الإمام القرطبي في تطبيقه لقاعدة "التفسير الذي فيه تطهير للأنبياء عمّا لا ينبغي أولى من غيره"، وهذا يدلّ على اهتمامه الواسع بها.
- يورد الإمام القرطبي في مواضع كثيرة في تفسيره أقوال العلماء في الدّفاع عن الأنبياء عليهم السلام سواء ما يتعلق بشخصهم أو في تبليغهم عن ربّهم دون تعليق أو تعقيب دلالة على تبنيه آراءهم وأقوالهم.

7. قائمة المراجع:

- ابن أبي العز، صدر الدّين، (1997م)، شرح العقيدة الطّحاوية، بيروت، مؤسسة الرّسالة.
- ابن فارس، أحمد، (1986م)، مجمل اللّغة، بيروت، مؤسسة الرّسالة.
- ابن فرس الأندلسي، عبد المنعم، (1427هـ، 2006م)، أحكام القرآن، بيروت، دار ابن حزم.

1 - محمّد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص 285.

2 - محمّد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص 285، 286.

- أبو عبد الله القرطبي، محمد، (2013م)، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- الفراهيدي، الخليل، (2007)، العين، مصر، دار الهلال.
- ابن منظور، محمد، (1414هـ)، لسان العرب، بيروت، دار صادر.
- الأزهرى، محمد بن أحمد، (2001)، تهذيب اللغة، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، (2002م)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، بيروت، دار ابن كثير.
- الصّابوني، محمد علي، (1981)، صفوة التّفسير، بيروت، دار القرآن الكريم.
- أبو الحسين، مسلم بن الحجاج، (1991)، المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

Bibliography List

- Ibn Abi al-Ezz, Sadreddine, (1997), Scottish Fairy Belief, Beirut, Mission Foundation.
- Ibn Faris , Ahmed , Overall Language, (1996), Beirut, Mission Foundation.
- Ibn Faris Alandalusi, Abd El , Moneim, (2006), The provisions of the Qur'an , Beirut, Dar Ibn Hazm.
- Abu Abd El , Allah Al , Qurtubi, Muhammad, (2013), The collector of the provisions of the Qur'an and the clarification of what it contains from the Sunnah and the verse of the Furqan, Beirut, Mission Foundation.
- al-Farahidi Al , Khalil,(2007), The Eye, Egypt , Dar Al Hilal
- perspective father, Muhammad, (1414), The Arab Tongue, Beirut, Dar Sader
- Al , Azhari, Mohamed Bin Ahmed, (2001), Language refinement, Beirut, House of Revival of Arab Heritage.
- Steam, Mohamed Bin Ismail, (2002), The Collector - the correct Musnad - the summary of the things of the Messenger of Allah - may Allah - may - his Sunnah and his days, Beirut, Dar Ibn Kathir.
- Soapy, Mohamed Ali, (1981), Elite interpretations, Beirut, Holy Quran House.
- Abu Alhussain, Muslim Bin Alhazzaj, (1991), The correct Musnad abbreviated from the Sunan by transferring justice from justice to the Messenger of Allah - may Allah peace be upon him -, Beirut, House of Revival of Arab Heritage.